سر المعلم كورني

للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه

بقلم الأديب عبد الغني العطري

تعريف بالقصة

يمكننا أن نقول دون غلو أو مبالغة إن كتاب رسائل من طاحونتي لدوديه هو أحسن ما أنتجه على الاطلاق. واسمع ماقاله شارل سارولا في مقدمة هذا الكتاب

« إن فن القصة فن فرنسي، وليس ثمة منطقة في فرنسه أنتجت قصاصين مجيدين كما أنتجته بلدة التروبادوريين ، وليس بين القصاصين البروفانسيين شبيه لألفونس دوديه ؟ وليس بين أقاصيص دوديه ما يفوق رسائل من طاحونتي »

وأنا أقول إنه ليس بين أقاصيص رسائل من طاحونتي أحسن ولا أروع من : « معزة السيد سوغان » و « المجوزان » و « نائب الوالي في القرية » و « سر المعلم كورني » . . .

فرانسيت ماماي نافخ في المزمار عجوز، كان يأتي لقضاء السهرة عندي من آن لآخر . وبينما كان ذات مساء يحتسي أكواب الخمرة المعتقة قص عليّ مأساة قروية قصيرة ، حدثت منذ عشرين عاماً وكانت طاحونتي من اللواتي شهدنها

وقصة الرجل الساذج هذا أثرت فيّ تأثيراً بليغاً وسأحاول ما استطعت أن أقصها عليكم كما سمعتها

تصوروا يا قرائي الأعزاء أنكم جالسون قبالة إبريق من الخمر المعطر ، وأن الذي يحدثكم هو هذا المجوز النافخ في مزماره :

إن بلادتنا يا سيدي لم تكن مجدبة أبداً كما هي اليوم . لقد كانت تقوم فيما مضى بتجارة واسعة في الطحانة ؛ ومن مسافة عشرة فراسخ كان سوّاقو الحمير يأتوننا بحنطتهم لنطحنها لهم . وكانت الهضاب المحيطة بالقرية مغطاة بمطاحن الهواء ،

وحينما تلفت المرء يمنة أو يسرة لم يكن ليرى إلا الأجنحة تدور باتجاه الريح الشمالية مغطية أشجار الصنوبر ، وجموعاً كثيرة من صغار الحمير محملة بأكياس الحنطة تصعد بها تارة وتهبط أخرى . وهكذا دواليك طيلة الطريق ، وكان من الممتع سماع صوت السياط من عل مدى الأسبوع ، وطقطقة النسيج ، وأصوات مساعدي أصحاب المطاحن وهم يحثون حيواناتهم على الإسراع . وفي أيام الآحاد كنا نذهب إلى المطاحن وحداناً وجماعات ، وهناك في تلك المرتفعات كان الطحانون يرشفون الخمر المعطرة . أما أزواج أصحاب المطاحن فقد كن جميلات فاتنات كما لو كن أزواجاً للملوك ، تزينهن مناديل أعناقهن المصنوعة من الخزم (١) وحليانهن الذهبية . أما أنا فقد كنت آتي بمزماري ويظلون هم يرقصون الفرندول (٢) حتى يقبل الليل بحلكته . وهذه الطواحين أتراها ؟ لقد كانت مصدر غنى وسعادة بلادتنا

ولكن أسس — لسوء الطالع — بعض فرنسيي باريس مطحنة تدور بواسطة البخار على طريق (تاراسكون)

(١) الدنتيلا

(٢) رقصة « بروفنسية » وبها يمسك الراقصون بعضهم بأيدي بعض ويرقصون على خط مستقيم

والناس راغبون فى الجديد ، ميالون إليه لأنهم يجدون فيه لذة ، وفى نفوسهم إليه رغبة ، وهكذا اعتاد الناس منذ ذاك الحين إرسال بُرّهم إلى مطاحن البخار

أما مطاحن الهواء المسكينة فقد ظلت بلا عمل ، ولقد حاولت بعدئذ المقاومة فناضلت وصمدت ؛ ولكن الغلبة كانت للبخار . ثم أفلست واضطرت كلها إلى إغلاق أبوابها الواحدة بعد الأخرى ؛ فلم يكن يُرى بعد ذاك تلك الحمير الصغيرة تأتى وتروح ، وأزواج أصحاب مطاحن الهواء الجميلات بين سلبانهن الذهبية ... فلا نخر عنب معطرة ، ولا رقصات الفرندول الجميلة . أما ريح الشمال فقد هبت كثيراً ! ولكن ... أجنحة تلك المطاحن ظلت جامدة لا تتحرك ولا تدور ...

ثم جاء يوم أزالت به مديرية البلدة كل هاتيك الخرائب من أصلها ، وزرعت مكانها الكروم وأشجار الزيتون

إلا أنه بالرغم من كل ما حدث ظلت واحدة فى وسط تلك الخرائب الزائلة ، صمدت لأحداث الزمان ، وتقلبات الدهر ، ظلت أجنحتها تدور بهمة ونشاط على ربوتها ؛ وذاك رغم أنف أصحاب مطاحن البخار . كانت هذه مطحنة المعلم كورنى ، وهى نفسها التى نقضى بها سهرتنا الآن

* * *

كان المعلم كورنى طحاناً عجوزاً قضى ستين عاماً من حياته بين الطحين . ولقد صيره إنشاء مطاحن البخار مجنوناً أو كالمجنون . ولقد شوهد مدة ثمانية أيام يركض فى القرية داعياً الناس إليه ، صائحاً بهم بكل ما أوتى من قوة حنجرة ، وارتفاع صوت :

إنهم يريدون أن يسمموا الناس بطحين مطاحن البخار

وكان يقول :

— حذار أن تذهبوا إليهم ، إن أولئك اللصوص يريدون أن يصنعوا الخبز فيستعينوا على ذلك بالبخار الذى هو من عمل الشيطان ! بينما أنا أستعين بالرياح — والرياح الشمالية بحسب — التى هى من أنفاس الخالق عز وجل .

ولقد سمع إذ ذاك كثيراً من الكلام فى مديح مطاحن الريح وإطرائها ؛ ولكن إلى جانب ذلك لم يعمل أحد بنصحه .

ثم توارى كورنى عن الأنظار بقوة إرادته ، غاضباً ، حانقاً ، وظل وحده فى طاحونته كحيوان متوحش ؛ ولم يشأ أن يكون قربه أحد ، حتى ولا حفيدته « فيفيت » البالغة من العمر خمسة عشر ربيعاً ، والتى منذ فقدت والديها لم يبق لها من قريب سوى هذا الجد .

ولقد اضطرت هذه الصغيرة المسكينة إلى كسب القوت بكد اليمين ، وعرق الجبين ، فكانت تكترى تارة لتسوق الحمير المحملة ، ولتقودها فى الطريق ؛ وتارة للعمل فى أيام الحصاد أو لغيرها من الأعمال .

ولقد كان جدها مولعاً بها كل الولع محباً لها كل الحب ؛ وعند ما يلج به الشوق إليها والحنين ، كان يقطع المسافات البعيدة ، فى حر الظهيرة ، مشياً على الأقدام ، باحثاً عنها خلف الأحمال ، حيث تشتغل . وعند ما يكون إلى جانبها ، كان يحملق فيها أبداً — وقد يقضى الساعات الطويلة كذلك — وهو يذرف الدموع

وكان سكان البلدة يحسبون أن هذا العجوز لم يدفع بحفيدته إلى تيار العمل ، ومترك الحياة ، إلا بحثاً منه وتقتيراً

وما كان هذا الظن ليشرفه ، كما لم يكن يشرفه القذف بحفيدته من مزرعة إلى أخرى ؛ معرضة خلال ذلك إلى فظاظة البعض ، وإلى شقاء الطفولة وبؤسها

وكان من العار كله على من كانت له شهرة المعلم كورنى وصيته ، والذى ظل حتى ذاك الوقت محترم الجانب موفور الكرامة ؛ أن يقطع الطرقات الطويلة حافى القدمين ممزق الفلنسوة والثياب كنورى أصيل

وعند ما كنا نراه فى أيام الآحاد يحضر القداس فى حالته الرثة تلك كان الخجل يساورنا منه نحن الكهول ، ولقد كان المسكين يحس ذلك جيداً ، إذ لم يكن يجرؤ على الجلوس على المقاعد المصنوعة ، بل كان دوماً يظل فى أقصى الكنيسة بالقرب من الجرن المقدس مع الفقراء والمساكين

ولقد كان فى حياة كورنى أشياء غير مجلوّة ، منها أن أحداً لم يعد يرسل إليه بُرّه ليطحنه ، وبالرغم من ذلك فقد ظلت أجنحة طاحونه تدور أبداً كما كانت قبلاً . وفى المساء كان الفرويون يلقونه فى الطريق ، وهو يدفع أمامه حماره المحمل بأكياس الطحين الكبيرة ، فيلقون عليه تحية المساء ويسألونه عن طاحونه :

— كيف حال المطحنة ، أما تزال بخير ؟

فيجيبهم العجوز بجد وحزم :

— بخير دائماً يا أولادى ! حمداً لله وشكراً على أن العمل لا ينقصنا

فإذا ما سُئل عمن يأتيه بقمحه ، زوى ما بين حاجبيه ووضع سبابته بشكل عمودى أمام شفتيه اللتين استدارتا وأجاب بثبات وعزم :

— صه ! . . . إنى أعمل للتصدير إلى الخارج

ولم يكن فى المستطاع استدراجه للتصريح بأكثر من هذا .

أما أن يطأ المرء عتبة طاحونته فهذا أمر غير معقول ولا يجب التفكير فيه أبداً ، حتى أن حفيدته فيفيت نفسها لم تطأها قدماها قط .

وكنت إذا ما مررت بها وجدت بابها مغلقاً وأجنحتها النليظة تدور ، دون ما توقف أو تمهل ، وحماراً كبيراً يعلف شيئاً من العشب ، وسنوراً كبيراً ، ولكنه هزيل ونحيل ، راح يعرض جسمه لأشعة الشمس ، وهو جالس على حاشية النافذة ، ويرسل من ناظريه نظرات خبيثة ماكرة .

كل هذا مما يشعرك بالغموض فى حياة المعلم كورنى ويستثير فى النفس الفضول ، وحب الاستطلاع ؛ وكل امرئ كان يتكهن ويعمل فكره لإظهار هذا السر واكتشافه ، وكان الشائع بين الجميع أن فى هذه المطحنة أكياساً من الدنانير ، أكثر مما فيها من أكياس الطحين .

* * *

ولقد كشف كر الغداة وسر العشى ، اللثام عن كل ماخفى من هذا السر ، وها كم كيف كان ذلك :

بينما كنت ذات يوم أسلّى نفسى بالنفخ فى مزمارى ، شعرت بأن ابنى البكر و « فيفيت » الفتاة قد تحابا وصارا عشيقين . والحق يقال أنى لم أغضب لهذا الحادث ؛ لأن اسم كورنى كان لا يزال شريفاً ومحترماً عندنا ، ومن ثم هذه « المصفورة ! » الجميلة « فيفيت » كان يلذ لى أن أتصورها وهى تتهادى بطلعتها البهية فى دارى

وبما أن الفرصة كانت تسنح لعاشقينا بالاختلاء أحياناً فقد خشيت أن يحدث بينهما ما لا تحمد عقبته ! لذا آليت على نفسى أن أنهى الأمر حالاً . فذهبت إلى الطاحون كى أتحدث إلى الرجل العجوز فى هذا الأمر

يالله من عجوز ساحرا ترى بأية صورة استقبلني؟ إنه من غير الممكن أن يكره على فتح باب طاحونته لأحد ... ! لقد أخبرته من شق القفل بالدافع الهام الذي حداني لمقابلته والحضور إليه . وبينما أنا أفعل ذلك وألح عليه بمقابلتي كان السنور الخبيث الهزيل يعوء فوق رأسي كشيطان رجيم

ولم يمكنني العجوز من إتمام كلامي بل صاح في وجهي بصورة تخلو من الأدب والذوق ، وأمرني أن أعود إلى مزماري ، قال إني إذا كنت عجلان إلى هذا الحد في تزويج ابني فما عليّ سوى أن أبحث له عن فتاة من بنات أصحاب مطاحن البخار

تقوا أن الدم قد فار في عروقي لسماع كلمات شائنة كهذه ، ولكني كتمت غيظي وثورة غضبي ورزقت ساعتئذ عقلاً واسعاً وحلماً كثيراً ، وتركت هذا العجوز المعتوه في طاحونته وعدت أدراجي لأروي للعاشقين الصغيرين خيبة أملي ومسعاي . أما هذان الحملان الوديعان فلم يصدقاني وطلبا إليّ بلطف وظرف أن أسمح لهما بالذهاب معاً إلى الطاحون ليتحدثا إلى الجد العجوز في هذا الشأن . فلم أقو على الرفض ولم أجد له سبباً

ها إن العاشقين الصغيرين قد ذهبا ، وبينما كان يسلكان سبيلهما السوى إلى الطاحون كان المعلم كورني يغادرها لأمر

لقد وجدا الباب محكم الإغلاق والقفل ، غير أن العجوز المسكين عند خروجه نسي السلم خارج الطاحون . وخطر للعاشقين إذ ذاك اغتنام الفرصة النادرة السنوح بأن يدخلا من النافذة ويكحلا عيونهما بالنظر إلى هذه الطاحون الدائمة الصيت

شيء لا نديّ له ولا مثيل ! .. غرفة الرحى كانت فارغة ... من كل شيء ، وليس فيها أكياس قمح ، حتى ولا حبة واحدة ، ولا أثر لغبار الطحين على الجدران ، ولا على نسيج العنكبوت الكثيف . وعدا ذلك لم يكن المرء ليشعر برائحة البُرّ الزكية الحارة التي تنتشر منه عقب طحنه والتي تنبعث عادة في كافة المطاحن . وكان محور الرحى مغطى بطبقة من الغبار الكثيف ، والسنور الكبير الهزيل يرقد في الأعلى

أما القسم الأسفل فقد كانت تبدو عليه أيضاً أمارات البؤس والهجر : سرير أكل الدهر عليه وشرب ، وبضع خرق ومزق ، وكسرة خبز موضوعة على إحدى درجات السلم ؛ وأخيراً في أحد الأركان ثلاثة أو أربعة أكياس مثقوبة من جوانبها يتساقط منها العضرم[1] وشيء من قطع الجبس

هذا هو سر كورني الكئيب ، الذي حرص على إخفائه ، وكانت هذه الفضلات من جبس الجدران الخربة هي التي « ينزهها » صباح مساء في أكياس ضخمة ليصون بها سمعة طاحونته من التلوث وشرفها من الدنس والعار فيوهم الناس بذلك أن رحاه تعمل وتشتغل .

يا للرحى المسكينة ! ويا لكورني البائس المسكين إن أصحاب مطاحن البخار قد نزعوا من نفسكما منذ زمن بعيد آخر أمل لكما في العمل . إن أجنحة رحاه تدور دائماً ، ولكن الرحى كانت تدور على ... على نفسها !

ولقد عاد إليّ العاشقان والدموع تترقرق في مآقيهما ، فقصا عليّ ما رأياه ، ولقد شعرت إذ ذاك أن قلبي يكاد ينفطر أسى ولوعة لمصاب هذا العجوز وفي الحال أسرعت إلى الجيران فقصصت عليهم

(١) تراب يشبه الجص

الخبر بإيجاز ، وعزمنا عزماً أكيداً على إرسال كل ما في بيوتنا من حنطة إلى طاحون المعلم كورني بأسرع وقت . ولقد عزمنا ونفذنا عزمنا لساعته ، فقامت القرية بأسرها تسعى إلى رابية المعلم كورني وهي تسوق أمامها الحمير المحملة بالحنطة ... الحنطة الحقيقية !

وهناك كان باب المطحنة مفتوحاً على مصراعيه وأمام الباب كان كورني جالساً على كيس جبس ، وهو ينتحب ويذرف الدمع السخين، ورأسه بين يديه. لقد شعر المسكين بأن أحداً دخل مطحنته خلال غيبته واكتشف سره الحزين . وكان يقول :

— يا لي من شقي تاعس ! لم يبق أمامي الآن سوى أن أموت ، لقد فُضح سري ، واكتشف أمري ، وتلوث شرف مطحنتي

ثم شهق شهقة كادت نفسه تتصدع لهولها ، وأخذ ينادي طاحونه بأعذب الأسماء وأرقها ويناجيها كأنها إنسان ينطق

وفي هذه الآونة وصلت الحمير التي كانت تتقدمنا إليه . وأخذنا جميعاً نصيح به ونناديه بكل ما أوتينا من قوة حنجرة وارتفاع صوت ، كما كنا نفعل في أيام مطاحن الهواء :

— أي صاحب الطاحون ! أي معلم كورني !

وها هي ذي الأكياس الضخمة تتكدس ، بعضها فوق بعض أمام باب المطحنة ، والقمح الأصهب الجيد يتناثر على الأرض من كل ناحية وصوب .

وفتح المعلم كورني إذ ذاك عينيه الكبيرتين وتناول في راحة يده العارية الأشاجع [1] شيئاً من القمح وقال وقد امتزج ضحكه بدموعه :

(١) أصول الأصابع

يا إلهي ! ... إنه قمح حقاً ! قمح جيد ! دعوني بربكم أمتع ناظري برؤيته جيداً

ثم مال إلينا بوجهه وقال :

— لقد كنت واثقاً من أنكم ستعودون إليّ ، إن أصحاب مطاحن البخار لصوص بأجمعهم

وأردنا أن نحمله على الذهاب معنا إلى القرية للاحتفال به ، ولكنه أبى ذلك وقال :

— كلا يا أولادي لا أريد ... يجب عليّ أن « أطعم » مطحنتي قبل كل شيء ، أذكروا أنه مر عليها أمد طويل لم تضع خلاله شيئاً تحت «ضرسها!»

وأخذت الدموع تترقرق في مآقينا جميعاً لمرأى هذا العجوز المسكين الذي كان يميل يمنة ويسرة وهو يفرغ أكياس الحنطة مما فيها ويراقب الرحى وهي تدور كل ذلك بينما كان الحب ينسحق ، وغبار الطحين الناعم يتطاير فيملأ جو المطحنة ويصل إلى سقفها .

ولعل من الإنصاف لأنفسنا أن أقول : إنه منذ ذلك اليوم لم ندع الشغل ينقص هذا العجوز أبداً

ثم ... مات المعلم كورني ذات صباح وأمسكت أجنحة آخر مطحنة للريح عن الدوران ، ولكن ... إلى الأبد ... إلى النهاية ... في هذه المرة . لقد مات كورني ولم يخلفه أحد . وماذا تريد يا سيدي ؟ إن لكل شيء نهاية ، وإن كل حال مصيره إلى الزوال ولا مفر ، ولكن يجب أن تعتقد أن زمن مطاحن الهواء قد انقضى كما انقضت أيام العربات الكبيرة ، وأيام المجالس النيابية ، وأيام السترات ذات الأزاهير الكبيرة [1]

(دمشق) عبد الغني العطري

(١) Jaquette à grande fleur ضرب من الثياب كان الرجال يرتدونها في فرنسة في الزمن الغابر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين)